

دلالة المكان في الشعر الجاهلي

د. عمار بن لقريشي / جامعة محمد بوضياف / المسيلة

أ. معمرى فواز / جامعة محمد بوضياف / المسيلة

المخلص:

يسعى هذا المقال إلى الكشف عما يحمله المكان من رموز ودلالات، يمكنها المساهمة في عملية التواصل بين القارئ والنص، وكذا إيضاح أهمية هذا العنصر المشارك في عملية بناء النص الأدبي عامة، والنص الشعري العربي القديم خاصة، وقد اتستدعى ذلك تتبع الخطوات المنهجية التالية: في البداية حاولنا تقديم مفهوم للمكان لغة واصطلاحاً، ثم دراسة الأبعاد التي دل عليها المكان في الشعر الجاهلي، كالأبعاد الاجتماعية والنفسية، وتجليات ذلك في النص الشعري الجاهلي. الكلمات المفتاحية: المكان، الظل، الديار، البيئة، الحيز، الفضاء، الموضوع.

Summary:

This article seeks to reveal what holds the place as symbols and connotations that can contribute to the process of communication between the reader and the text, as well as to clarify the importance of this co-operation element in the construction of literary text generally, and also the importance of the ancient poetic Arab text especially. The steps of this article have been explained below:

In the beginning we are trying to introduce the concept of the place (language and idiomatically), then study dimensions indicated by the place in the pre-Islamic poetry, as social and psychological dimensions, and its impact on the pre-Islamic poetic text.

Key words:

place, ruin, home, environment, area, space, position.

تمهيد:

يعدّ المكان إحدى العناصر والمكونات الأساسية والمهمة في العمل الأدبي، وذلك لما يحمله من أبعاد جمالية وفنية تسهم في عملية وبلورة مجرى الأحداث وبناء الشخصيات، فالمكان لا يقف في كونه حيزاً أو مجالاً تتحرك فيه الشخصيات فحسب بل

يتعدى إلى أبعد من ذلك؛ إذ أصبح يحمل دلالات وإيحاءات تشير إلى القصد والمعنى الذي يحتويه النص سواء كان هذا النص شعراً أم نثراً، وبصورة أخرى أصبح وسيلة تعبيرية تعكس لنا العلاقة القائمة بينه وبين الإنسان.

من هذا المنطلق كان حضوره في النصوص الأدبية خاصة منها الشعرية حضوراً طاعياً فالمتصفح للشعر العربي يلاحظ مدى ارتباط الشاعر ببيئته وتأثره بها، فكان يأخذ أشكالاً وصوراً متعددة في ذهنية صاحبه، تكشف لنا عن المعاني التي يحملها هذا العنصر في توليد القيم الإنسانية. لذلك كان المكان بالنسبة للشاعر أرضاً خصبة للتعبير عن ما يجول في خاطره ومشاعره مما جعله يتحول إلى غرض خاص لتلبية الدواعي والمواقف الكامنة في نفسيته، يرسم فيه أبعاده الاجتماعية والنفسية التي تحمل في طياتها معالم ودلالات مختلفة تتم فيها عملية التذكر والتخيل التي تجعل القارئ يتعرف على العلاقة القائمة بين المكان والشاعر؛ فالشخصية لا يتحقق وجودها الفعلي إلا بحضور ووجود هذا العنصر الذي يبعث فيها الحركة والاستمرارية من جهة ويضفي عليها سمات جمالية من جهة أخرى. فكان ارتباط الطلل بالشعر الجاهلي، صلة لا تنقطع ولا يمكن الفصل بينهما؛ فحديث الشعراء عنه يكشف عن ذلك، سواء أكان الوقوف به عابراً، أم حاول الشاعر فيه استقصاء تفاصيل الديار التي عفا عليها الزمن. غير أن ما نلاحظه على هذا الوقوف، أنه ليس وقوفاً عادياً بل يشير إلى مجموعة من المعاني تأسست عليها حياة العرب، عبر فيها الشاعر العربي عن قيم ومبادئ دافنة في نفسه ووجدانه، فكانت وسيلة تشير إلى العلاقة الحميمة التي ربطت الإنسان العربي بدياره.

فما مفهوم المكان في اللغة و الاصطلاح؟ وما أبعاده وتجلياته في النص

الشعري الجاهلي؟

1- مفهوم المكان: (لغة - اصطلاحاً)

لغة: جاء في لسان العرب " : المكان الموضع والجمع أمكنة كقذال وأقذلة وأماكن.

قال ثعلب: يبطل أن يكون مكاناً فعالاً؛ لأن العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك؛ فقد دل هذا على أنه مصدر من كان موضع منه، و(مكّن) له في الشيء: جعل له عليه سلطاناً¹. فأبن منظور

عدلظة (المكان) محتواة في مادة (مكّن) الدالة على الموضع والجمع. ويذهب الزبيدي إلى أن المكان أوسع وأشمل، فهو عنده "الموضع الحاوي للشيء، وعند بعض المتكلمين أنه عرض وهو اجتماع جسمين حاوٍ ومحوي، وذلك ككون الجسم الحاوي محيطاً بالمحوي"².

لقد أعطى الزبيدي مفهوماً أوسع للمكان، بحيث عدّه الموضع الحاوي للأشياء والأجسام الموجودة والمتعلقة بهذا المكان.

- اصطلاحاً:

ظهرت أهمية المكان عند كثير من الباحثين القدماء والمحدثين، وذلك لارتباطه بالإنسان من جهة، ووجوده في العديد من المجالات والميادين المعرفية والعلمية من جهة أخرى. ويعد أفيلسوف اليوناني (أفلاطون) أول من صرح به اصطلاحياً، وهذا ما ذهب إليه حسن مجيد الربيعي إلى أن "أول استعمال اصطلاحى للمكان في الفلسفة قد صرح به أفلاطون، إذ عدّه حاوياً وقابلاً للشيء"³ كما يتفق أرسطو مع أفلاطون في التصور العام للمكان من حيث الوجود و الكينونة فالمكان عنده "موجود مادماً نشغله ونتحيز فيه، وكذلك يمكن إدراكه عن طريق الحركة والتي أبرزها حركة النقلة من مكان إلى آخر، وهو مفارق للأجسام المتمكنة فيه وسابق عليها ولا يفسد بفسادها"⁴.

و يعرف الباحث السيميائي (لوتمان) المكان بقوله: "هو مجموعة من الأشياء المتجانسة من الظواهر أو الحالات أو الوظائف أو الأشكال المتغيرة، تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة العادية مثل: (الاتصال، المسافة.. الخ). و يمثل المكان إلى جانب الزمان الإحداثيات الأساسية التي تحدد الأشياء الفيزيقية، فنستطيع أن نميز فيما بين الأشياء من خلال وضعها في المكان، كما نستطيع أن نحدد الحوادث من خلال تأريخ وقوعها في الزمان"⁵.

من هذا التعريف يتضح أن المكان كل ما يحتوي الأجسام والأشياء؛ أي أنه غير الفراغ وهو ما جعله يتميز بصفة الاحتواء، وهو يتحدد بعلاقاته ومفاهيمه المكانية مثل (أعلى، أسفل متصل، داخل، خارج)، هذه المفاهيم التي تتحول بدورها إلى وسيلة من وسائل وصف المكان، فتكسبه معاني جديدة.

كما فرق "حسن بحراوي" بين أمكنة الانتقال وأمكنة الإقامة" أما أماكن الانتقال فتكون مسرحاً لحركة الشخصيات وتنقلاتها، وتمثل الفضاءات التي تجد فيها الشخصيات نفسها كلما غادرت أماكن إقامتها الثابتة، مثل: الشوارع والأحياء والمحطات وأماكن لقاء الناس خارج بيوتهم كالمحلات والمقاهي، وذلك بناء على قاعدة الاشتقاق، يشتق من التعارض الأصلي الأول انتقال الإقامة تقاطباتفرعية مشتقة، حيثولد من أمكنة الإقامة تقاطباتبين أماكن الإقامة الاختيارية وأماكن الإقامة الإجبارية مثل: المنزل مقابل السجونتقاطبات أخرى بين أماكن الإقامة الراقية مثل: القصور ، الفيلات الأكواخ ، مدن"6 إذن فحسن بحراوي يذهب إلى أنه يوجد نوعان من الأماكن، فهناك أماكن للإقامة (اختيارية إجبارية)، وأماكن للإنتقال، مثل الشارع، والمحطات، والمقاهي....الخ.

كما يعدّ المكان إحدى الأسس والدعائم في إنشاء العمل الأدبي؛" فالأدب الذي يكتسب العالمية هو ذلك الأدب الذي يستطيع أن يتبناه الإنسان ويجد فيه خصوصيته ، ومثل هذا الأدب يشق الطريق إلى العالمية ولكنه يفعل ذلك عبر ملامح قومية بارزة وقوية أحدها المكانية"7.فتاريخ المكان تاريخ عريق في الشعر العربي، تتناقلته الأجيال عبر العصور، وأعدت صياغته على نحو من استلها التراث المتجدد في روح المجتمع، فقد أصبح الشعر الذي يتعلق بالمكان فكراً للمجتمع يجري في وجدان الأمة جريانه على الألسنة.والمتمصفح لشعر العربي القديم - وخاصة منه الشعر الجاهلي - يجد أن المكان حظي باهتمام الكثير من الشعراء آنذاك، وذلك لاحتلاله مكانة مرموقة وكبيرة في حياتهم الاجتماعية والنفسية.

2- الأبعاد الاجتماعية والنفسية في الشعر الجاهلي:

أ- البعد الاجتماعي:

يُمثل البعد الاجتماعي العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الشخصيات وقيمهم وتقاليدهم وطبائعهم ومستوى معيشتهم ، وما يعترضهم من مشكلات وقضايا. فكان الشعر بمثابة الوسيلة التي تنقل أحاسيسهم، وطبائعهم، وتفاصيل حياتهم، وهو في ذاته فن إنساني يقوم على توقد الإحساس بالجمال، ووسيلة للتعبير عنه، وهذا ما نجده عند

الشاعر الجاهلي، الذي قدم وصفاً للطلل في أجمل ما أبدع شعرياً ، فعندما " تفتح سفر الشعر العربي القديم يبرز الطللشامخاً كأنه السمة البارزة التي تميز القصيدة العربية القديمة، فالقصيدة التي تخلو من هذه المقدمة هي قصيدة مبتورة غير مكتملة عارية لم تلبس الثوب الفني المعهود"8. لأنهم وجدوا في الطلل مفتاحاً يفتحون به قصائدهم، وعاملاً تتحرك به النفس في كنف الحياة. فوظف الشاعر الجاهلي المكان توظيفاً اجتماعياً، ليصور طبيعة الحياة الاجتماعية السائدة في تلك الفترة؛ فكان الشاعر يستدعي المكان ليعين الحالة الاجتماعية التي كان يعيش فيها، سواء بالانتماء لمجتمعه أو قطع الصلة والتمرد عليه. فهذا الشنفرى مثلاً قد قطع الصلة بالمجتمع والمكان الذي كان يعيش فيه واستبدلهم مكان آخر، يمتاز بالوفاء والسكينة، فيقول:

" أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمِيلُ
فَقَدْ حُمَّتِ الْحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمَرٌ وَشَدَّتْ لَطِيَّاتِ مَطَايَا وَأَرْحُلُ
وَفِي الْأَرْضِ مَنَآئِ لِكُرَيْمٍ عَنِ الْأَذَى وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقَلِي مُنْعَزَلُ
لَعَمْرُكَ مَا فِي الْأَرْضِ ضَيْقٌ عَلَى أَمْرِي ... سَرَى رَاغِباً أَوْ رَاهِباً وَهُوَ يَعْزَلُ
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سِيدُ عَمَّ لَسْ وَأَرْقَطُ رُهْلُولُ وَعَرَفَاءُ جِيَالُ
هُمُ الْأَهْلُ لَا مُسْتَوْدَعُ السَّرِّ ذَائِعٌ لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُحْذَلُ"9.

يأمر الشاعر قومه وأهله بالنهوض والانصراف عنه لإهمالهم له " فهو يعيش بين قطبين: فردية تدفعه إلى رفع كل ضغط وتثبيت لحقوقه الدائمة (الأنا) اتجاه حقوق الجماعة، ويتعلق من ناحية بجماعته بصورة عميقة وذاتية قد تصل حد التضحية بالنفس"10.

ويقول أيضاً:

" وَبَاضِعَةٌ حُمُرِ الْقِسِيِّ بَعَثَتْهَا وَمَنْ يَغْزُ يَغْنَمُ مَرَّوَيْشَمَّ تِ
خَرَجْنَا مِنْ الْوَادِي الَّذِي بَيْنَ مِشْعَلٍ وَبَيْنَ الْجَبَا هِيهَا تَأْنَسُ تَأْنَسُ رَيْتِي
أُمَشِّي عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي لَنْ تَضُرَّنِي لِأَنَّكِي قَوْمًا أَوْ أُصَادَفَ حُمَّتِي
أُمَشِّي عَلَى أَيْنِ الْغَزَاةِ وَبُعْدَهَا يُقَرِّبُنِي مِنْهَا رَوَاحِي وَغُدُوتِي"11.

تتضمن هذه الابيات قضية الثأر التي قام بها الشنفرى بعد مقتل والده من طرف حزام بن جابر، وهي الغاية، والهدف الذي جعله يخرج من الوادي بعد أن توقف فيه، واستذكر ما كان فيه من علاقة حميمة بينه وبين شخصاً آخر.

لكن نجد في الضفة الآخر من الشعراء من يبكي ويتحصر على المكان والمجتمع الذي كان يعيش فيه، ومن هؤلاء عبيد الأبرص الذي يبكي على ديار بني سعد من بني أسد الذين أبادهم الغسانيون ويرثيهم:

" لِمَنْ طَلَّلَ لَمْ يَعْفُ مِنْهُ الْمَذْنِبُ فَجَنَّبًا جَبْرٌ قَدْ تَعَفَّى فَوَاهِبُ
 دِيَارُ بَنِي سَعْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الْأُولَى أَذَاعَ بِهِمْ دَهْرٌ عَلَى النَّاسِ رَائِبُ
 فَأَذْهَبَهُمْ مَا أَذْهَبَ النَّاسَ قَبْلَهُمْ ضِرَاسُ الْحُرُوبِ وَالْمَنَايَا الْعَوَاقِبُ
 الْأَرْبَ حَيٌّ قَدْ رَأَيْنَا هُنَالِكُمْ لَهُمْ سَلْفٌ تَزَوَّرُ مِنْهُ الْمُقَانِبُ
 فَأَقْبَلُ عَلَى أَفْوَاقِ مَا لَكَ إِنَّمَا تَكَلَّفْتَ مِلْ أَسْئَاءَ مَا هُوَ ذَاهِبٌ" 12.

ويقول أيضاً:

" لِمَنِ الدَّارُ أَفْقَرَتْ بِالْجَنَابِ غَيْرَ نُؤْيٍ وَدِمْنَةٍ كَالْكِتَابِ
 غَيْرِنَهَا الصَّبَا وَنَفْحُ جَنُوبٍ وَشِمَالٍ تَذُرُو دُقَاقَ التَّرَابِ
 فَتَرَاوَحْنَهَا وَكَلْمُلْتُ دَائِمَ الرَّعْدِ مُرَجِّحِ السَّحَابِ" 13.

الشاعر في هذا الموضع أنكر الديار، وأخذ يتساءل عن أهلها الذين تركوها وهجروها " فلم يبق من آثارهم سوى الحفر التي كانت تمنع السيل عن خيامهم، وآثارهم التي عليها الرياح فجعلتها كالكتاب في استوائها" 14.

ويذهب البعض الآخر إلى تصوير حاله ورحيل الأهل عن المكان، فهذا لبيد بن ربيعة " يعلن عن توحش الديار، ويحدد مكانها بمنى" 15. فيقول:

" عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمَقَامُهَا بِمِنَى تَأْبَدَ عَوْلُهَا فَرَجَامُهَا" 16.

يتكلم الشاعر في هذا البيت عن مكة التي هجرها أهلها، فأصبحت مكاناً للوحوش بعد أن كانت تجمع الناس في الشهور الحرم، فانقطعت الصلة بينهم بسبب حرب الفجار من جهة والرحيل والبعد عن تلك الديار من جهة أخرى.

إن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون معيشة بدوية تتميز بالبساطة والحرية، فعاشوا في الصحراء بكل تقلباتها وتغيراتها، فكانت ملجأً لهم، يصارعون مخاطرها، والاعداء الذين يتربصون بهم. يقول تأبط شراً:

" يَظَلُّ بِمَوْمَاءَ وَيُمْسِي بِغَيْرَهَا جَحِيشاً وَيَعْرُوزِي ظُهُورَ الْمَهَالِكِ
وَيَسْبِقُ وَقَدَ الرِّيحِ مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي بِمُنْحَرِقٍ مِنْ شَدَّةِ الْمُتَدَارِكِ
إِذَا حَاطَ عَيْنِيهِ كَرَى النَّوْمِ لَمْ يَزَلْ لَهُكَالِيءٌ مِنْ قَلْبِ شِيحَانَ فَاتِكَ
وَيَجْعَلُ عَيْنِيهِ رَبِيئَةً قَلْبِيهِ إِلَى سَلَّةٍ مِنْ حَدِّ أَخْفَصَائِكَ
إِذَا هَرَهُ فِي عَظْمِ قَرْنٍ تَهَلَّلَتْ نَوَاجِدُ أَفْوَاهِ الْمَنَايَا الصَّوَاحِكِ
يَرَى الْوَحْشَةَ الْأَنْسَ الْأَنْبَسَ وَيَهْتَدِي بِحَيْثُ هَتَدَتْنَا مُنْجُومِ الشَّوَابِكِ" 17.

يعكس لنا المكان في هذه الأبيات الصورة والحياة التي كان يعيشها الشاعر في الصحراء معبراً فيها عن وحشة الحياة التي عاشها، وقساوة الطبيعة التي فرضت عليه.

ب- البعد النفسي للمكان:

إن للمكان أبعاداً نفسية تؤثر في الذات البشرية سلباً وإيجاباً، وفقاً لما يثيره هذا العنصر من مشاعر وأحاسيس؛ فهو المرآة العاكسة لذات الانسانية من أفعال وأقوال، تأخذ منه الشاعر ملاذاً للحرية والسكينة عاش فيه، وخلف فيه ذكريات وحوادث، كان يستذكرها كلما عاد ورجع إليه. فقد برز المكان في الشعر الجاهلي من خلال المعلمات التي أشار فيها أصحابها إلى بعض الأماكن ذات الصلة والعلاقة التي تربطهم بتلك الأماكن. ولعل من أهم الشعراء الذين تناولوا المكان في شعرهم نجد امرؤ القيس، فقد كانت طبيعة الحياة وظروفها التي عاشها مصدراً مهماً من مصادر تكرار التجربة وإعادة الحياة فيها وذلك متمثل بتجربة المكان، وفي هذا المعنى يقول:

" قِفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ
فَتَوْضِحَ فَاَلْمِقْرَاةَ لَمْ يَعْفُ رَسْمَهَا لَمَّا نَسَجْتَهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالِ
تَرَى بَعَرَ الْأَرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا وَقِيَعَانَهَا كَأَنَّهُ حَبٌّ فُلْفُلِ
كَأَنَّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا الْإِسْمُرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفِ حَنْظَلِ" 18.

الشاعر في هذه الأبيات يخاطب صاحبيه، كانا يسيران معه طالباً منهما الوقوف والبقاء معه عند تذكر حبيباً فارقه ومنزلاً خرج منه، وذلك من خلال موضعين (الدخول، وحومل). فلم يمح أثرها؛ لأنها كلما غطتها رياح الجنوب بالتراب، كشفته رياح الشمال عنها.

فالشاعر من خلال هذين البيتين يعيش حالة تركت في نفسيته حوادث كان لها الأثر الواضح على احساسه ومشاعره، مما جعله يعيش الذكريات حتى يجعل منها حقيقة، يسترجع بها حالتها الوجدانية الغابرة في كل مكان مر به، فعوالمه وأماكنه متنوعة غنية بالمشاهد والأحاسيس. فعلاقة الشاعر بالمكان ذات أبعاد متعددة تستحضر الواقعي والخيالي معاً. وهذا ما جعل الشاعر ينتج شعره من المكان الذي كانت له فيه ذكريات ومواقف، جعلته يستحضر الماضي والحاضر. فأصبحت تلك الحوادث " تعبر عن نفسيته من خلال استدعائها من مخزون ذاكرته بحيث تشكل هذه في النهاية معادلاً مساوقاً لتجربته الشعرية" 19. كما أن ظهور وبروز ظاهرة الطلل في الأبيات يدل على ذلك العالم القاسي المتباعد عالم الصحراء والترحال والتغيرات عالم الوداع والحنين وفقدان الاستقرار في هذه البيئة.

إن تسامي النفس الإنسانية عند الشاعر - عن طريق بكاء الطلل - دل على المعاني التي يحملها المكان، كالوفاء ونحوه من المثل العليا، فأصبح وصف الآثار ليس إلا تشبث الشاعر بوجوده المكاني الذي أخذ في الارتحال، فجدد بذلك فكرة وثنائية البقاء والفناء. فخرجت بذلك الصورة من محتواه المجازي إلى العلم الواقعي؛ لأنبلاغة المشهد في هذا السياق أقرب ما تكون لذات مرجعية حقيقية.

يقول طرفة بن العبد:

" حَدْوُلُ ثُرَاعِي رَبْرِيَا بِحَمِيلِيَّةٍ تَنَآوُلُ أَطْرَافِ الْبَرِيرِ وَتَرْتُدِي
وَتَبْسُمُ عَنَّا لَمِي كَأَنَّ مَنًّا مَوْرًا تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصُ لَهْ نَدِي
سَقَّتْهَا بِأَيَّةِ الشَّمْسِ إِلَّا لِنَاتِيهِ أَسْفَ وَ لَمْ تَكْدُمِ عَلَيْهِ بِإِثْمِدِ
وَوَجْهَهُ كَأَنَّ الشَّمْسَ أَلْقَتْ رَدَائِيهَا عَلَيْهِ نَقِيُّ اللُّونِ لَمْ يَتَخَّ دَدٌ 20.

يخترق الشاعر في هذا المشهد التركيب البصري بحثاً عن امرأته المثاليكونحضورها عنده يدل على حدث الرحيل العائد أساساً إلى المشهد الطللي، فهو يصف لنا الصورة الخارجية لحبيبته التي رسمها وشكلها في مخيلته، فانقلبت الصورة من حالة شكل ورسم يتصف بالجمود، إلى كائن حي يتلاعب بنفسية الشاعر. وهذا ما نجده كذلك في هذه الأبيات:

" لَخَوْلَةٌ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةٍ تَمَهْدُ تَلُوحُ كِبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
وَقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيئَهُمْ..... يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكِ أَسَى وَتَجَدُّ
كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوَّةٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِندَدٍ
عَدَوِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشْتَقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْرُومُهَا كَمَا قَسَمَ التُّرَابُ الْمُفَايِلُ بِالْيَدِ" 21.

يجسد الشاعر فكرة وظاهرة الطلل في هذه الأبيات، حيث ربط الطلل بالوشم الخالد وذلك من خلال نقشه على اليد، فأطلال خولة مرسومة كالوشم على اليد. هذه الأثار التي خلفت وتركة الهم والهروب من الواقع لدى الشاعر. فكان حضور خولة بين حضورٍ غائبٍ وحضورٍ حاضرٍ جسده علاقه التماهي والتباعد لدى الشاعر.

يتضح لنا أن الصور الحسية والذهنية توزعت في هذه الأبيات، من خلال تبادل فعل التجسيد والتشخيص فضلاً عن كثرة الصور الرمزية، والمتمثلة في الطلل. فاستعملت الصورة هنا في صياغتها لخلق عالم يبيث ويعبر فيه الشاعر عن آرائه وأفكاره، اتجاه الواقع. مما أضفى على الوجود قيمة جمالية. فتكونت الصورة في هذا المشهد على " أساس شعور وجداني غامض بغير شكل، بغير ملامح تناوله خيال المؤلف، فحدده وأعطاه شكله أي حوله إلى صورة تجسده" 22. فالصورة الحسية تركيب عقلي يقوم بها الشاعر ليعيش في وسط تلك الأحاسيس المفعمة بالأمل والحياة، فهي تجسيم للأفكار والخواطر النفسية والمشاهد الطبيعية حسية كانت أم خيالية من أجل الإيحاء والتعبير.

كما نجد عنتر يصف الديار والأطلال ويسألها، ويطلب منها أن تتكلم، وتحدثه عن محبوبته ولكنها لا تجيب. يبقى واقفاً يذكر ارتحالها وانتقالها، ثم يجتبيالديار

ويذكر أن محبوبته قدابتعدت عن الديار، فليس له إلا أنيذكر رحيلها وما تركته في نفسه من أثر ولوعة.

يقول:

"هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَزَدِّمٍ.... أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوْهَمِ
أَعْيَاكَ رَسْمُ الدَّارِ لَمْ يَتَّكَلَّمْ.....حَتَّى تَكَلَّمَ كالأَصَمِّ الأَعْجَبُ
وَلَقَدْ جَسَّنُهَا طَوِيلًا.....نَاقَتِي أَشْكُو إِلَى سَفِيعِ رَوَاكِدِ جُنْمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي.....وَعِمِّي صَبَاحاً دَارَ عَبْلَةَ وَاسْلَمِي" 23.

إن ما يلاحظ على هذه الابيات هو عبور الشاعر إلى الماضي الذي استحضره في الحاضر والاندماج فيه، فظهر الشوق إلى المكان الذي عاش فيه، وكانت فيه ذكريات ذات صلة وثيقة بتجارب الشعراء وحياتهم الخاصة والعامة؛ فالمكان هو البيئة التي عاش فيها الشاعر العربي بكل ما تشمل من مظاهر الطبيعة المتحركة والساكنة. ولعل حديث الشاعر في هذا المقام يشير إلى تقلب الحياة، والتغير الذي أصاب المكان وما حل به بعد رحيل أهله عنه، فهو حديث عن "بقايا الأشياء تلك البقايا التي لا تزال تحتفظ بالماضي، وليس الشاعر إلا بقية شيء أتى عليه البعد والهجر والفرق مثلما أتى المطر والرياح والزمن على معالم المكان" 24.

وخلاصة القول نجد أن المكان يحمل في طياته معان عميقة يتجاوز في كونه حيزاً يحمل شكلاً هندسي فقط، بل يعمل كوسيلة تقوم علي توليد الدلالات، والمعاني للتعبير عن الوجود الإنساني؛ فالإنسان من خلال المكان يتأمل غربته ويحن لماضيه متذكراً الأُنس والألفة، وهذا ما عبر عنه الشاعر الجاهلي في اطلاله، التي وصف فيها حياته البدوية، وتنقله من مكان إلى آخر. فقد وقف الكثير من الشعراء في قصائدهم على الاطلال والحياة المنبعثة منها، فكانت تدل على الهوية الحقيقية للشاعر الجاهلي، وعبرت عن انتمائه لشتى مناحي الحياة، وهذا ما أصبغ على المكان نوعاً من الجمالية أضفت عليه أبعاداً اجتماعية ونفسية كان لها الأثر الواضح في بلورة وتغيير مجريات الأحداث التي خاضها الشاعر الجاهلي. فأصبح المكان بذلك عاملاً لتحريك شاعرية الشاعر،

وذلك من خلال علاقة التلازم التي تسهم في تداعي الذكريات لدى الشاعر، وتعلقه بالمكان وما يحمله من ذكريات وأشجان.

الهوامش والإحالات:

- 1- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن أحمد بن أبي القاسم بن حقة بن منظور: لسان العرب، مج 6 ج 48، مادة (مَكَّن)، دار المعارف، القاهرة مصر، 1981، دط، ص 4250.
- 2- السيد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس مادة (مكن) ، مج 9، دار صادر بيروت، (د.ط) ، 1966.
- 3- العبيدي، حسن مجيد، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 1998، ص 9.
- 4- أرسطو طاليس : الطبيعة، ت إسحق بن حنين، ت ح عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ط 2، ص 281.
- 5- محمد بوعزة: تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، 2010. ط 1، ص 99.
- 6- محمد بوعزة: تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، ص 104.
- 7- غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، ط 5، (بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، 2000 ، 5.
- 8- سعيد محمد الفيومي : فلسفة المكان في المقدمة الطللية في الشعر الجاهلي مجلة الجامعة الإسلامية - سلسلة الدراسات الإنسانية- المجلد الخامس عشر العدد الثاني، ، 2008، ص 244.
- 9- مصطفى السقا: مختارات الشعر الجاهلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 2007 ص 425.
- 10- ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ترجمة: ابراهيم كيلاني، دار الفكر - دمشق، دط، ص 35.
- 11- الشنفرى: الديوان تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط 2، بيروت 1996، ص 33.
- 12- محمد عبد الرحيم: ديوان عبيد بن الأبرص، لبنان، ط 2008، 1، ص 43.
- 13- محمد عبد الرحيم: ديوان عبيد بن الأبرص، ص 46.
- 15- عبد الحق حمادي الهواس: المعلقات الرواية والتسمية، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان ط 2003، 1، ص 50.

- 16- ابن النحاس: شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان الجزء الأول، ط، ص129.
- 17- عبد الرحمان المصطاوي: تأبط شراً- الديوان - دار المعرفة، بيروت - لبنان - ، ط1 2003، ص44.
- 18- امرئ القيس: ديوانه، دار صادر - بيروت- ط، ص29.
- 19- علي الغريب محمد الشناوي، الصورة الشعرية عند الأعمى التُّطيلي، ط1، مكتبة الآداب- القاهرة- 2003، ص 59.
- 20- محمد عبد الرحيم: ديوان طرفة بن العبد، دار الراتب الجامعية، ط1، 2008، ص42.
- 21- محمد عبد الرحيم: ديوان طرفة بن العبد، ص41.
- 22- فاطمة عيسى جاسم، الصورة الفنية في مجموعة-أحد عشر كوكبا- امحموددرويش، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، العدد394
- 23-مصطفى السقا: مختارات الشعر الجاهلي، ص 318.
- 24-جريدي سليم المنصوري: شاعرية المكان ، مطابع شركة دار العلم للطباعة جدة، 1992، ص 9 .